وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشطرًا من الليل، حتى لقد كان يغيظ أصحابه ويملأ قلوبهم حسدًا، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملأ قلبها خوفًا من الحسد والحاسدين، وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة في أن يختلس الوقت من حين إلى حين وينتهز الفرصة التي يغيب فيها أبناؤه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصًّا فينسل إلى الغرفة انسلالًا كأنه اللص، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نُظمت عليها الكتب تنظيمًا، ويلقي على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسها مسًّا ويمسحها مسحًا يسيرًا، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتًا.

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة، فيأخذ كتابًا منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم، أو ليقرأ فيه سطرًا أو أسطرًا يفهمها أو لا يفهمها، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعانًا فيما ينبغي للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسيغون ما لا يعرف آباؤهم ولا يفهمون ولا يسيغون. وكثيرًا ما كان يظهر هذا الرجل ميلًا فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبناؤه ببعض ما يقرءون ويعطوه شيئًا من هذه الكنوز التي يملئون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا، ولكنه كان شقيًّا دائمًا لا يكاد يلمِّح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفورًا وازورارًا، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان. وكثيرًا ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضنهم بالعلم وإيثارهم أنفسهم بلذاته وثمراته، يتحدث بذلك متألمًا محزونًا أو ثائرًا مغضبًا، فتعزيه زوجه وتهدئه وتزعم له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكرامًا للعلم وإشفاقًا على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون، فيقبل منها أو يجادلها فيه.

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقديس من هذه الأسرة الساذجة، ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء، وقضى أهلها يومًا منغصًا كله شرٌّ ويأس، وأمل خائب وظن كاذب، وكنت أنا مصدر هذا البلاء، فكفَّرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة، وما كان أسعدني بهذا الخروج!